د. عائشة عبد الرحمن

د. بنت الشاطىء

د. عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)
«بين العقيدة والاختيار»

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

«من عادتي أن أقرأ كل كتاب يصل إلى يدي. ثم يحدد قراءاتي الأولى.. موقفي منه، فإما اكتفيت بتدوين ملاحظاتي عليه في مفكرتي، ثم أوجهه إلى أحد أبنائي طلاب التخصص، أو إلى إحدى المكتبات الإقليمية التي أزودها بما أستغني عنه من كتب بعد مطالعتها، وإما احتفظت به في خزانتي تحت النظر والمراجعة، مقلقة بما يشغلنا من قضايا الفكر المعاصر»..

وعن الفكر العربي المعاصر.. وقضاياه، ودور العقيدة من الفكر، وبين العقيدة.. والاختيار، تطرح الدكتورة.. بنت الشاطىء قضية الاختيار.

ويقدمها الدكتور إبراهيم دسوقي أباظة.. بقوله:

إن أستاذة الجيل.. الدكتورة بنت الشاطىء، تتصدى بنفاذ الفكر.. وعمق الخبرة لأدق القضايا.. التي تطرحها العقيدة. فتعالج.. مصير التيارات العقائدية وضرورة الاختيار، في ندوة عامة.. اجتمع لها نفر من المتخصصين.. فترفض القطع بالمصير.

(وهذه الندوة.. دعت إليها الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي.. بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٧٢م.. بالرباط، حيث شارك فيها إلى جانب الدكتورة

بنت الشاطىء، الداعية الإسلامي.. الدكتور المهدي بن عبود، والأستاذ محمد الحمداوي).

وقد شغلت الدكتورة بنت الشاطىء منصب أستاذ الدراسات العليا في جامعة القرويين، وتنبهت.. على حد قولها.. وهي تأخذ مكانها في أعرق جامعة إسلامية، إلى ما يدين به طلاب المدرسة الإسلامية حينما.. وأينما كانوا.. للعلماء المغاربة، الذين كانوا أساتذة الجيل منّا، في عطاء تراثهم السخي الذي تزودنا منه على طول الطريق في دراستنا لعلوم الإسلام.. المغربية.

يقول إبراهيم دسوقي أباظة: إنها عندما تطرح مثل هذه القضية فترفض القطع بالمصير، لأنه في يقينها ليس سوى «غيباً في مضمر الغد». أما الاختيار بين المتداول من التيارات، فتوليه عمق النظر.. ودقة التحديد فترفض الخلط الشائع.. بين المذهب والعقيدة. فالتيارات المعاصرة.. إن هي إلاّ مذاهب اقتصادية وسياسية واجتماعية محدثة انتحلت في عصرنا اسم العقيدة التي لا تتعلق بغير الدين.

وعندما تطرح الدكتورة بنت الشاطىء.. قضية الاختيار، فإنها تستبعد من محيطها جيل الآباء، لتحصرها في جيل الأبناء. لكنها تقف بهم عند منطق الاختيار.. لتتساءل.. إن كان شبابنا، حقّاً، على بيِّنة مما يختار أم إنه ضحية استهواء، وانقياد تنعدم عنده كل حرية في الاختيار والتفضيل؟

أما الدكتورة عائشة عبد الرحمن.. فتستهل كتابها.. بالرأي القاطع إذ تقول:

«وإذا كانت أمم أخرى.. تأخذ بالتفسير المادي للتاريخ، فإن العقيدة.. هي التي تعطي تاريخ أمتنا.. تفسيره ومنطقه.

إذن، الموضوع يتعلق بمصير التيارات العقائدية وضرورة الاختيار.

وطبيعي.. أن الذين يفكرون منا في مصير التيارات، يقيمون تصورهم له على تقدير لاتجاه سيرها، وحساب لاحتمال أبعادها، لكن الأحداث

بطبيعتها متغيرة، فليس من شأنها الثبات.. ليصدق توقعنا بالضرورة ـ وغير مستبعد في عالمنا الذي يتغير بين لحظة وأخرى.

وحسبي أن أتكلم هنا.. عن واقع الأمس.. واليوم:

عن ماضينا الذي كان:

شهد فيه التاريخ لأمتنا ـ تحقق وجودها الكريم الحر.. تحت لواء عقيدتها، وتبدع حضارتها الرائدة، التي قادت مسرى البشرية في ظلمات عصورها الوسطى، حضارة إسلامية الجوهر والروح.. والفكر والمنهج، عربية اللسان والقلم، شاركت فيها شعوب الأمة من أقصى المشرق الآسيوي، إلى أقصى المغرب الإفريقي، كان القرآن دليل هذه الحضارة الإسلامية الرائدة.. القائدة.. ومنارها ولواءها.

عن ذرائع الغزو الفكري الضاري:

الذي تسلط علينا في ليلنا الطويل، وجعل من عقيدتنا هدفاً، لم يغب قط عن بصر الغزاة.. من كل جنس وملة، ليشوهوا الإنسان فينا، ويفرغوه من جوهر ذاته، ويمسخوا ملامح أصالته.

عن حاضرنا البائس التعس:

الذي استعرنا فيه ثقافات الغرب ـ وانتحلنا شتى مذاهبه، وتوزعنا فيما بينها طرائق قدداً ذات اليمين وذات اليسار، فما أغنى عنا ذلك كله شيئاً.. أي شيء، فيما تعاني أمتنا من هزيمة وهوان.. وتمزق، ولا أعطتنا المذاهب التي انتحلناها في المدارس التي انتمينا إليها ـ أي عوض عن عقيدتنا التي نفرط فيها وأصالتنا التي هانت علينا.

عن هذا الواقع مما كان بالأمس.. وما هو كائن اليوم ـ يمكن أن أتحدث ـ أما المصير في الغد.. فلا علم لي به. الله يعلم.. ولست إلاّ كما قال شاعرنا الجاهلي.. الحكيم «زهير بن أبي سلمى»:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

وأتلو من كلمات ربي.. ما تلا نبيُّنا المصطفى عليه الصلاة والسلام:

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾[1] مع الجهل بالمرفوض.. أو المقبول.

أي منطق حرية الاختيار في العقيدة والفكر والمذهب، أن يكون الإنسان على بيِّنة مما يرفض أو يقبل، وهذه هي مأساة شباب اليوم».

في حوار للدكتورة بنت الشاطىء مع بعض الماركسيين من شباب الجيل - قالوا لها:

«إننا والملايين أمثالنا مسلمون بالجبر والإلزام ثم بالتبعية والتقليد. يولد أحدنا.. فيقرر له أبواه عقيدته، وتسجل في شهادة ميلاده من قبل أن يفتح عينيه، ثم يشب عن الطرق ويتفتح إدراكه، ليجد نفسه مقيداً إلى دين لم يؤخذ رأيه فيه، ولا يملك أن يرتد عنه.. في مجتمع مسلم.. دون أن تطارده لعنة الردة».

وأعود فأسأل: ماذا يعرف أبناؤنا الشباب من عطاء دينهم، وقيم عقيدتهم، ليصح لهم اختيار حر؟!

إن الضمير في العقيدة الإسلامية منطقة حرام، لا يحل أن تنتهك، ولا أن تستباح. الله وحده.. يعلم النوايا، وأسرار القلوب، وخفايا الصدور.

وفي عصرنا هذا.. تنتهك هذه المنطقة الحرام، وتخضع أفكار الإنسان وهواجسه وأسراره لأبشع ضروب المصادرة والعبودية، التي لا يقاس فيها ما كان يعاني الرقيق في الدهر الغابر. يكبل بالسلاسل.. والأغلال في رجليه ويديه وعنقه، ويبقى له عامله النفسي مطلق السراح.. لا سبيل إلى اقتحامه، ولا سلطان لسيد على هواجسه وخواطره، وإنسان العصر.. قد أبدل بالرق الجسدي.. استرقاق العقل.. والنفس والضمير».

---

(١) سورة الأعراف/ ١٨٨.

وتتساءل الدكتورة بنت الشاطىء في حيرة.. ودهشة:

«..ما موقف أبنائنا منا.. حين يكشف الغطاء عن أبصارهم وبصائرهم ـ فيحمّلونا وزر ما عرّضناهم له من ذرائع المسخ والتشويه.. والغربة والضياع، ممزقين بين ما في ضميرهم من ولاء لأمتهم.. عقيدة.. وقومية.. ولساناً، وما يتجاذبهم من شتى التيارات الوافدة عن يمين.. ويسار. وهم يواجهون بهذا التمزق.. عار إسرائيل وتكاليف معركة وجود أمتهم.. وتحديات العصر».

إن قلم الدكتورة.. بنت الشاطىء.. يعرض في تركيز وعمق.. قضية حيوية، يعرض قضية خطيرة من الفكر، يعرض مأساة الفكر الجاد عندما يتوجه بالخطاب إلى العقل.. في وسط يحتكم إلى العاطفة، وعندما يجتهد لإدراك وجه الحقيقة.. في محيط يؤثر الوقوف بها عند السطح.

إن العقيدة والإيمان.. من خصائص الإنسانية، وكل تكاليف العبادات والشعائر.. والقيم الأخلاقية. إنها أمور تتعلق بإنسانيتنا فنحن بهذه الإنسانية ـ لا بالحيوانية التي فينا.. نؤمن، ونتعبد، ونتقي ونخشع، ونخطىء، ونتوب، وبإنسانيتنا نختلف.. ونتفاضل. فيكون منا المؤمن والكافر، المهتدي والضال، التقي والفاجر، الكريم واللئيم، الطيب والخبيث.

إن الإنسان وحده هو الذي يصوم نسكاً.. ومجاهدة، ويطيق الجوع الاختياري.. والحرمان الإرادي.. ولا يطيق الذل.. والعار، وقد يبذل حياته فدية لشرفه وكرامته وعقيدته.. ووطنه.

لقد دار علينا الزمان، فألقى بنا في دوامة هذا الصراع. وحجب عن شباب الأمة من ماضي تاريخها وقيم عقيدتها ـ ما يحمي أصالتهم في مهب التيارات الغازية، ويحصنهم بشاعة ضد الاستهواء والتغرير والتخدير.

وباسم الحرية العصرية فرطوا في أصول شخصيتهم المميزة ـ وجذور وجودهم العريق ـ عن جهل بقيمتها وعطائها.

وبالجهل ـ تفقد حرية الاختيار منطقها ـ فلا يكون الاختيار إلا انقياداً

أعمى لما يستهوي الشباب الجاهلين بتاريخهم وعقيدتهم - الغرباء عن وطنهم.

إذن، كيف يمكن الاختيار بين المطروح من العقائد والتيارات إذا انتفت المعرفة اليقينية بموضوعها!

إن الدكتورة بنت الشاطىء.. قد أجابت، وأفاضت وأوردت، وأثبتت.. وأقنعت، بلغة أدبية.. وفكر عميق مميز.

* * *

الرئيس مبارك يكرم بنت الشاطىء عام ١٩٨٥

مع الرئيس الراحل أنور السادات

الأمير سلطان بن عبد العزيز
يسلمها جائزة الملك فيصل

«بنت الشاطىء»
«وشاهدة العصر»
«في الدراسات الإسلامية»

ـ والدكتورة عائشة عبد الرحمن العالمة.. الموسوعية.. والرائدة الإسلامية من النساء.. اللواتي تفخر بهن مصر.. ويفخر بهن العالم العربي.. والإسلامي.. والفكري.. والإنساني.. وكانت معاركها دائماً حول المبادىء التي آمنت بها كامرأة مسلمة.. ومن أجل فكرها الإسلامي النقي.. ولقد كانت دائماً تؤمن بقيمة المرأة المسلمة.. وبالقيم الإسلامية.. التي تؤكد مكانة المرأة.. ووجودها.. بوعي شديد.. ومن أهم معاركها.. التي خاضتها «بنت الشاطىء» أخيراً.. ثلاث معارك:

ـ معركة السفور ـ ومعركة الحجاب ـ ومعركة التعليم.

ـ لقد كان قلم الدكتورة بنت الشاطىء.. يفيض بالإيمان.. وبنغم إنساني حلو المذاق.. ينبض بالفكر.. والعلم.. والأدب.. ولقد حددت للمرأة رسالة.. هي: «رسالة الإسلام الحضارية».

ولكم أشادت بجيل الرائدات: «عائشة التيمورية»، وباحثة البادية «ملك حفني ناصف»، و«ميّ زيادة»، و«زينب فواز»، و«نبوية موسى»، و«هدى شعراوي».

ـ أما الشخصيات النسوية في القرآن الكريم.. فلقد أفاض قلمها بلغة المرأة العالمة.. فهي حين تتحدث عن السيدة مريم (أم المسيح (عليه

ملك حفني ناصف «باحثة البادية»

السلام))، منها تكتب عنها.. بتهيب شديد لأنها تبوأت مكاناً عالياً ومكانة رفيعة.. إذ تقبَّلها ربها ـ كما جاء في الكتاب العزيز ـ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا.. كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. وهي عندما تتكلم عن شخصية هذه الأم «مريم».. فهي ستظل أبداً ماثلة في سيرة ابنها.. ورسالته.. وهي تقدم شخصيتها من وجهة النظر الإسلامية.. لتأخذ مكانها مع أمهات الأنبياء في سياق الحديث العام عن «رسالة الإسلام الحضارية»..؟ وتخص الأمهات.. بحضانة الصفوة ـ أصحاب الرسالات الثلاث الكبرى ـ وتعلي من قدر أمومتهن في كل الأمم.. وكونهن جميعاً.. سابقات على الإسلام..

﴿وإذ قالت الملائكة.. يا مريم.. إن الله اصطفاك.. وطهرك.. واصطفاك على نساء العالمين.. يا مريم.. اقنتي لربك.. واسجدي.. واركعي مع الراكعين﴾[1].

ـ وتظل السيدة الأم ماثلة في شخصية ابنها ـ سلام عليهما ـ وفي مواقفه.. ورسالته.. فقلما يذكر بغير نسبه الجليل إلى أمه البتول..

﴿إذ قال الله يا عيسى بن مريم.. اذكر نعمتي عليك.. وعلى والدتك.. إذ أيدتك بروح القدس.. تكلم الناس في المهد.. وكهلاً.. وإذ علمتك الكتاب والحكمة.. والتوراة.. والإنجيل﴾[2].

ـ هذه ملامح شخصيتها.. أما للمسيح ـ عيسى بن مريم ـ سلام الله عليهما.

(١) سورة آل عمران/ ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة المائدة/ ١١٠.

ولقد أفاضت الدكتورة «عائشة عبد الرحمن» وأجادت في أبحاثها.. ودراساتها.. عن: «المرأة ورسالة الإسلام الحضارية».

- وعن أمهات الأنبياء - سلام عليهن - وعن وصية النبي ﷺ - بأهل مصر - القبط - وهي وصية مشهورة - أخرجها مسلم في كتاب «فضائل الصحابة» في صحيحه - من عدة طرق.. بألفاظ متماثلة.. أو متقاربة في باب: «وصية النبي ﷺ.. بأهل مصر - فعن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ.. قال: **(إنكُم سَتفتحُون مِصرَ وهي أرضٌ يسمى فيها القيراطُ، فإذا فَتحتُمُوها فأحسِنُوا إلى أهلها فإن لَهُم ذِمَّةً وَرَحماً)**.

وحديث أم المؤمنين أم سلمة.. رضي الله عنها:

«إن رسول الله.. ﷺ.. أوصى عند وفاته. فقال:

(الله.. الله.. في قبط مصر.. فإنكم ستظهرون عليهم.. ويكونون لكم عدة وأعواناً.. في سبيل الله).

نبوية موسى

وحدث بها «كعب بن مالك الأنصاري - الشاعر - رضي الله عنه.. قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً.. فإن لهم.. ذمةً.. ورحماً..).

- وهذه هي: رسالة الإسلام الحضارية.. كما حللتها وأفاضت في شرحها.. الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء» العالمة الإسلامية الكبيرة.. وشاهدة عصر..

- ولم تكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن.. مجرد أستاذة جامعية.. أو عالمة متخصصة في علوم الدين.. وإنما كانت وفق ما تركته من كتب وأبحاث ومقالات.. عالمة موسوعية بكل المقاييس.. كتبت في بيان القرآن الكريم.. وفي بيان اللغة العربية.. وفي التراجم.. وفي الفقه.. وفي أصول الدين..

زينب فواز

وأبدعت في كل تلك الكتابات.. بروعة الفكر.. وعظمة البيان.. وكما كتبت بنت الشاطىء في بداية حياتها القصص والروايات.. وأحدثت تجاوباً كبيراً.. كان من المتوقع لها المضي في هذا المجال الأدبي الإبداعي.. ولكنها فضلت أن تخصص كل كتاباتها للدراسات الفكرية والدينية، والإشراف على رسائل الدكتوراه. لتلامذتها وطلاب العلم في كل أنحاء العالم العربي.. وخاصة.. في المغرب.. وفي جامعة «القرويين» هناك..

«بنت الشاطىء» هذه المفكرة العظيمة.. كما كتب عنها «اتحاد كتاب مصر»:

«إنها من الشخصيات التي يجب أن تنضم إلى كوكبة الخالدين.. في مصر.. والعالم الإسلامي كله»..

- وليس هناك أمتع.. ولا أعظم.. ولا أروع مما قرأت للدكتورة عائشة عبد الرحمن. من تحليلها المبهر ككتاب الأستاذ إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأهرام الصحفية «في الحب.. والحياة».. وما ضمنته من مزج ومراجعات لتراجم «بيت النبوة» على هذا الكتاب.

فقد مزجت هذه المفكرة الإسلامية.. والرائدة الإنسانية.. والمحللة الدينية.. مزجت بين سيدات بيت النبوة.. وكتاب «في الحب.. والحياة..» كيف..؟:

«فالحب إذاً.. دين وإيمان.. والحب في كل صوره.. ومعانيه.. نور

نـوراني.. إلـهـي.. يـشـع ضـيـاء.. وصـفـاء.. ورضـاء.. وطـمـأنـيـنـة.. وسكينة.. وهداية.. وأمل.. ورجاء».

فماذا تقول الدكتورة عائشة:

«كان الأستاذ إبراهيم نافع.. يطالع في تراجمي.. لسيدات «بيت النبوة» وأهداني كتابه الفريد.. «في الحب.. والحياة».. عجلت بقراءته. وكأني ألتمس ملامح من شخصيتي.. وشخصيات كثير.. ممن عرفت.. أو لقيت.. تفاوتت أشخاصاً.. وتفاوتت العناصر والأجناس.. وتباعد الأمان.. والمكان.. ونلتقي بفطرتنا السوية من انتمائنا للأم ـ «حواء».

هدى شعراوي رائدة الحركة النسائية قبل الثورة

ـ إن كتاب «إبراهيم نافع».. قدم لنا.. بضعاً وسبعين صورة.. «لحواء» أتلو فيهن في خشوع من آيات سورة «طه» قوله تعالى:

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل.. فنسى.. ولم نجد له عزماً.. وإذ قلنا للملائكة.. اسجدوا لآدم.. فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم.. إن هذا عدو لك.. ولزوجك.. فلا يخرجنكما من الجنة.. فتشقى.. إن لك.. ألا تجوع فيها.. ولا تعرى.. وأنك لا تظمئوا فيها.. ولا تضحى.. فوسوس إليه الشيطان.. قال يا آدم.. هل أدلك على شجرة الخلد.. وملك لا يبلى.. فأكلا منها.. فبدت لهما سؤاتهما.. وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.. وعصى آدم ربه.. فغوى﴾[٣].

(١) سورة طه/ ١١٥ ـ ١٢١.

إبراهيم نافع ـ والدكتورة عائشة عبد الرحمن وتراجم بيت النبوة والحب والحياة

ـ العهد كان لآدم.. والنسيان منه.. والتحذير من إبليس.. والوسوسة إلى آدم.. والعصيان.. والغيّ من آدم.. لكنه.. الخطيئة الأولى.. لا تلبث أن تزدوج.. بصريح النص:

«فأكلا منها حقاً ﴿فبدت لهما سؤاتهما﴾ إلى أن قضى الله.. بأن يهبطا.. فهبطا حقاً..

هذا التحليل الإنساني المرهف.. والفكر الفلسفي المحلق.. العميق الذي يمزج بين سيدات «بيت النبوة» وبين شواهد (إبراهيم نافع) ـ في الحب والحياة ـ لهو في الحقيقة لا يصير.. إلا عن نفس ذواقة للأدب الإنساني الصوفي الملهم..

هذه هي.. «عائشة عبد الرحمن.. المرأة المسلمة التي تنضح فكراً.. وعلماً.. وإيماناً.. وتصوفاً.. قلم متوهج.. يحلل.. ويقدم.. العناصر الأزلية في التاريخ.. والمنهج الإسلامي.. والأسلوب الشاعري.. فإن أدب.. «عائشة عبد الرحمن.. لهو في الحقيقة.. «أدب شعري.. أو بشعر أدبي.

ـ فلكم تغنت بالشعر.. وكم مزجت دراساتها.. ومقالاتها.. وأبحاثها وكانت دائماً مع المرأة تدافع عنها وتناصر قضاياها في الحرية والمساواة والعدل، من أجل حياة إنسانية كريمة للمرأة ودورها الحضاري في الحياة العصرية.

هذه هي «عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء شاهدة العصر.. ولتنتهي أخيراً.. مسيرة العطاء الطويلة النبيلة.. فكانت الرائدة الإسلامية.. في عصر التنوير.. وصورة كاملة.. للمرأة الكافية بلغة الشعر والقرآن.. حاملة رسالة التنوير.. في القرن العشرين.. وللقرن القادم.